لم أكُ بغيّا

فاطمة الزهراء نعوم / المغرب

أشـعلَت التلفاز لتَحضُـر البرنامج الذي دائما تحرص على مشـاهدة كل حلقاته دون أن تفوتها واحدة، كانت دائماً تدون رقم البرنامج خشـية أن يتغير في إحدى الحلقات احتياطا فقط ،لكنها لم تجرؤ أبداً على الإتصال خوفا منه، خوفا من أن يمسكها بالجرم المشهود، كانت تهابه لدرجة أن معدتها تَتعكَر كلما دخل هو البيت ولا تعود لِصفوها حتى يغادره ، تخشاه حد الرهاب، إلى أن أصبحت تعاني من فوبيا مصدرها "هو"؛ كما شخصها لها طبيبها النفسي، أخبرها أنها لا تعاني من أي اضطراب سواه فشخصه على أنه "فوبيا الجيلالي"، و أنذرَها أنذاك بقوله:

"- إنك يا سيدتي لا تعانين من أي شيئ ، لكن مشكل الوحيد و الأوحد هو زوجك الجيلالي"

حتى الطبيب كان من مَمنوعاتِه عليها، كانت تزوره خلسـة خوفا منه، ف قُفل الباب الموصَـد لم يكن يُفتح لغيره ، لكنها أصـبحت تعبره بحرية في غيابه، بعد أن سـرقت أحد المفاتيح الاحتياطية من محفظته و ياليتها ما فعلت!

أخفضـت صـوت التلفاز؛ لأنها كانت تخاف أن يدخل خلسـة فيجِدَها في محاولة تمردها الأول، شـرع البرنامج و جاء صـوت المذيعة مرحبة بكل المشـاهدين الأوفياء، فانشـرَح فؤادُها هي مسـتقبلا التحية برحابة صـدر، و هنا ظهر الحافز الأول لتمردها؛ رقم هاتف البرنامج الذي كان معنوناً ب "مشـكلتك مشـكلتنا جميع" كان عبارة عن برنامج يسـاعد النسـاء المُحطمات،البائسـات،الكئيبات،العاجزات ماديا و نفسيا و معنويا... لأول مرة تشجعت، حملت هاتفها الخاص الذي كانت تزج به في حمالة صدرها خفية من أن يراه، تفادت اسـتعمال هاتف المنزل لأنه مراقب بل و موصـول بهاتفه هو، فهو يراقب كل تحركاتها داخل المنزل بصمت.

طال صوت رنين الإتصال: طوط..طوط..طوط، ثم قاطعته المذيعة بصوتها قائلة:

-ألو ، مرحبا بك سيدتي في برنامجك، من معي أرجوك؟

انقطع صـوت المتصـلة فجأة إلى أن ظن الجمهور أن الإتصـال قد قطع، فَسُمِع هسـيس همس دموعها و هي تُسابق نحيط ألَمها الصامت و الذي تعوَّدت على صوته المنخفض ولو كان وجعاً يُذرف.

حاولت المذيعة تهدئتها، لكن فاض كأسـها بعدما مُلئ قسـراً ،فالجرح عندما يندمل و يبلغ منتهاه حتى الصبر يصير مجرد غبار عليه ينفض.

بعد صمت طويل قررت الإفصاح فخاطبت شجاعتها بقولها

-قد لا أجد مثل هذه الفرصة من جديد لذا يجب أن أغتنمها إلى نهايتها.

ثم أردفت علناً قائلة:

-إعذريني أيتها المذيعة رحمة لكني لن أستطيع إعطاء معلوماتي الشخصية، سأكتفي بقناعِ هويةٍ مجهول لأنه إن عَلِم بخطوتي هذه فحتما لن..لن يرحمني أو يرحم ضعفي و قلة حياتي.

قاطعتها المذيعة رحمة تسأل بحيرة :

-"من ذا الذي لن يرحمك؟ أفصحي عن هويته كي يُعاقب."

تجاهلت هي سؤال المذيعة و كأنه لم يطرح ثم أتمت كلامها بصوت ملأه شيب شبابها و بَحَّة خوف جرحت حبالها الصوتية:

-" عشنا قصة حب دامت خمس سنوات ، أحببته فيها كما لم أحب نفسي، حسبته قطعة روح لا تتجزأ من روحي، و هكذا حسبني كما كان يزعم و الله أعلم بما كان في صدره.

بعد أن طلب يدي من والدي - لم يكونا راضيين كل الرضى، و لا ألوم خوفهم فكل الآباء لا يرضون عيشة الذل و المهانة لبوعلتهم- لكن قدر الله تكلم و تزوجنا. في أعوام الزواج الأولى كان لي كأبطال روايات العشق التي لطالما أحببت قرائتها، كان يستلقي إلى جانبي كالملاك يشعّ ضياءً، لكن رويدا رويدا ما تحول إلى شيطان جهنميّ الوجه و الطبع؛ وهنا عَلَت حقيقته المُرَّة ملامحه البريئة و فؤاده البريئ فَمُسِخا، و كأن ما كان عليه من حب و حنان كانا مجرد تعويذة جميلة ،لكن أسفي زال سحرها الآن و السبب في كل هذا عقدة عقمه.

بعد أن طال انتظارنا لطفل يبهج مقلانا و يحيي فيها ربيع ما مات من بريق، أصررت على القيام بالفحوصات الازمة لاستبيان المشكل، فظهرت النتيجة و التي كانت صدمة عمري، كان عقيما كحظي الذي لا يلد ، و الصدمة الكبرى أنه كان يحيط بكل هذه الأمور خبرا ولم يخبرني قبل الزواج، تغاضى عمدا عن الإفصاح و انتقاما أيضا: انتقام من مقلي التي كانت تنبض بالحياة،و من فؤادي الذي كان غرقا يحيا من حب الأطفال، فاستهواه هذا الطيش الجميل و حرَّك فيه الغدر، فاغتصب سنوات شبابي و أوهمني بحبه الكاذب الاذع ليحرمني من نعمة الأمومة و يَهِلَ علي بنقمته هو.

و هُنا خذلني اختياري له كزوج لي،

كان دائم الغضب إلى أن نسي كيف يبتسم الناس،دائما ما يزين كل بقعة من جسدي بمختلف أنواع الضرب و العذاب ، ويبرر لي أن كل هذا ما هو إلاّ محبة لي و غيرة علي و هوس بعشقي وهذا ما يجعله لا يقدر حتى على مجرد التخيل بأني قد أحب شخصا آخر أو قد أصبح امرأة تلد من رجل آخر، نَتيجةً يصبُّ فيَّ أنين غيرته انتقاما واقعا بينما ما كان في عقله مجرد حلمٍ خيالاً.

بعد أن تحمّلت كل أنواع الموت في هذا البيت الذي أضحى بالنسبة لي كالسجن و صمتت ، أصبحَ مؤخرا يعاقبني على الاشيء و يخنقني بالماء و يتهمني بالبغاء، و يُدلي للكل على أني بغية لا ملة لها ولا دين، وإن دافعت عن عِرضي أتلقى الصفع الحار كالعادة، و ما فتئ الآن يتهمني: بأني سبب عقمه ،

و الفساد،و الخيانة الزوجية و العياذ بالله، و دائما ما يجبر أذناي على الإستماع إلى مواله الشهير؛ الذي من خلاله يؤكد لعقله المجنون -الذي لا يملك ذرة منطق- بأن كثرة علاقاتي الغير شرعية سببن لي داء السيدا، و أنَّ إصابتي به كانت اختيارية و حريةٌ بها اقتنعت ، و الهدف من كل هذا -كما يزعم- هو أن أنتقم منه سيرا على خطى انتقامه هو، لكني...لكني..."

ثم أجهشت بالبكاء..وتابعت :

-" لكن كل ما قاله عني مجرد افتراء كاذب، مجرد أضغاث كلام لا غير"

حاولت المذيعة أن تهدئ من روع السيدة، و أن تضبط هي صدمتها مما تجرعته هذه المسكينة و المعاناة التي تحرق فؤادها و تقطعه إربا إربا، و العقاب الذي ستتلقاه إن أحاط زوجها خبرا بتمردها عن قوانين سجنه الزوجي..

ثم قالت المذيعة بحقد و غضب:

-" يجب يا سيدة أن تعطينا معلوماتك الشخصية و صورة زوجك ذاك، فشخص كهذا يجب أن يعاقب و أن يتلاشى من هذه الدنيا، و أن لا يبقى منه سوى رماده حرقه؛ بخورا منثورا، يجب أن.."

قاطعتها الضحية بصوت مترعد يملأ ثناياه الخوف و الرعب القاتل قائلا:

-"يجب أن أقفل الخط، صدى خطواته تقترب،تنذر بقدومه بغضب نحوي، و إبزيم الحزام يصدر أنين إنذار بملحمة ضرب ستزور جسدي المتآكل، يجب أن أذهب، إنه قادم كالنار نحوي، قادم كالشيطان.."

طوط..طوط..طوط..و أُقفل الخط